الاتجاهات الحديثة فى المباحث التاريخية والأثرية
الخاصة بالشرق القديم

١ — تمهيد

ظهر فى عام ١٩٥٠ كتاب عن تاريخ مصر وغرب آسيا فى العصور القديمة لعالمين شهيرين وهما المرحوم إسكندر شارف عالم الآثار المصرية وأنطون مورتجات عالم التاريخ والآثار فى غرب آسيا(١) ، وفى آخر هذا الكتاب نرى استدراكاً لمورتجات أضافه إبراء لذمته أمام القارئ فيقول إنه انتهى من كتابة الجزء الخاص به فى صيف ١٩٤٩ ولكن فى الفترة التى مرت حتى البدء فى طبعه فى أغسطس ١٩٥٠ ظهرت أبحاث هامة جديدة وستظهر أبحاث أخرى أثناء الوقت الذى يستلزمه طبع الكتاب ولهذا يعتذر إلى القارئ إذا لم يجد تنويهاً عن أحدث الآراء التى كتبها العلماء أو أحدث أنباء الاكتشافات ويختم كلمته بقوله : « يجد الباحث فى تاريخ الشرق القديم نفسه فى سباق مع جيش من المتخصصين من زملائه ، وهو يحس دون شك بالاعتراف بالجميل لما يفعلونه لبناء صرح هذا التاريخ ، ولكنه يجد المعلومات الأساسية فى هذا التاريخ تتغير دائماً نتيجة لتقدم الأبحاث العلمية . ولكن رغم ذلك فإن جمهور القراء بل والمتخصصين أنفسهم يحسون بالحاجة الماسة إلى جمع آلاف المعلومات المتشعبة التى تظهر من آن لآخر عن الحياة فى العصور القديمة فى غرب آسيا ، ويحسون أيضاً بالحاجة إلى الاستفادة منها لتكوين صورة عامة نرى فيها تلك التفاصيل وقد وضعت فى أماكنها فى هيكل هذا الصرح وساعدت على توضيح بعض النقط التاريخية » . وأن هذا الإحساس الذى شعر به مورتجات ليس إلا صدى لما يتردد فى نفس كل مشتغل بتاريخ الشرق القديم فى السنوات الأخيرة فقد انتهى

(١) ALEXANDER SCHARFF — *Anton Moortgat, Agypten und Vorderasten in Altertum, München*, 1950.

العهد الذي كان من الميسور فيه دراسة تاريخ مصر القديم دون الاهتمام بالحضارات أو الأمم الأخري كما انتهى أيضاً العصر الذى كان يستطيع فيه إنسان أن يقول أنه لا يعرف إلا تاريخ بلاد الرافدين أو إيران ، فنى الوقت الذى كانت تتابع فيه أحداث التاريخ فى مصر أو فى العراق كانت هناك شعوب أخرى وحضارات أخرى وكانت هذه الشعوب العديدة ذات صلة ببعضها وكانت حضاراتها وثقافاتها تتأثر بغيرها مما كان فى بلاد الشرق إذ ذاك .

وبالرغم من مرور وقت غير قصير على دراسة الآثار المصرية ، فإننا نرتكب خطأ جسيماً إذا زعمنا أو خيل إلينا أننا أصبحنا عالمين بكل التاريخ المصرى أو أصبح فى استطاعتنا فهم كل ما أحاط بالحياة الاجتماعية فى مصر من مؤثرات فإننا بعيدون عن ذلك كل البعد ، وهكذا الأمر فيما يختص بغير مصر خصوصاً وأن البحث عن بعض هذه الحضارات ما زال فى أول عهده ، ولا يمر شهر واحد دون ظهور أبحاث هامة فى تاريخ تلك الحضارات ، ففى الوقت الذى تعمل فيه دائرة الآثار فى العراق على بحث أراضيها سواء على يد أبنائها أو على يد البعثات العلمية الأجنبية تقوم مصر بنصيبها على نطاق واسع فى هذا الميدان ، وفى الوقت نفسه تعمل بعثات كثيرة فى الأناضول وفى سوريا وفى لبنان وفى قبرص وبلاد اليونان . وهناك أيضاً فى إيران والأفغانستان والتركستان وفى الهند والپاكستان حفائر وعلماء لا يتوانون فى البحث ويوالون نشر النتائج اكتشافاتهم وأبحاثهم جهد استطاعتهم ، ومن وراء رجال هذه البعثات مئات من الأساتذة وطلبتهم ينتظرون بفارغ الصبر نتائج الحفائر ليزدادوا علماً بحضارات الشرق ويستفيد منها كل منهم فيما تخصص فى دراسته .

وليس فى استطاعة أحد أن ينكر أن أبحاثاً عديدة فى التاريخ المقارن لبلاد الشرق القديم ظهرت منذ أواخر القرن الماضى ولكن هذه المقارنة كادت تقتصر فى العصور القديمة على مصر والعراق ثم بعد ذلك مع اليونان عندما أخذت تظهر على مسرح تاريخ العالم ، ولكن منذ الأعوام الأولى من القرن العشرين بدأت الاكتشافات الأثرية تتوالى فى جهات متعددة وكان العام الذى اكتشفت فيه مراسلات « بوغازى كوى » فى الأناضول وهو عام ١٩٠٦ بداية ليصبح

تاريخ الشرق المقارن علماً له اتجاهاته وله باحثوه ولم تكد الحرب العالمية الأولى تنتهى حتى رأينا أحد كبار المؤرخين وهو المرحوم « چيمس هنرى برستد » يتخذ خطوة كبيرة فى هذه الدراسات فيقوم فى عام ١٩١٩ — ١٩٢٠ برحلة فى بلاد الشرق القديم ليمهد بذلك لتحقيق أمنيته الكبرى وهى إنشاء المعهد الشرقى بشيكاجو الذى قام بعد ذلك بإعداد مكتبته العظيمة فى شيكاجو ومتحفه وأرسل بعثات متعددة جمع لها علماء من أجناس كثيرة ممن امتازوا بالتفوق فى هذه الدراسات وكانت هذه البعثات تعمل فى وقت واحد فى مصر وفلسطين وسوريا والأناضول والعراق فكانت نتائج أبحاث هؤلاء العلماء فتحاً جديداً فى تاريخ الشرق منذ عام ١٩٢٢ حتى الآن[1] ، وكانت حفائر وأبحاث المعهد الشرقى بشيكاجو حافزاً لغير الأمريكيين فظهر نشاط غيرهم من الدول والجامعات فكان البريطانيون يعملون جادين فى بعض مناطق العراق وفلسطين ونشط الفرنسيون فى إرسال البعثات إلى سوريا وأفغانستان وإيران كما نشطت حكومات أخرى مثل الهند وتركيا واليونان للأخذ بنصيبها فى ميدان الأبحاث الأثرية ولهذا كانت الفترة بين أعوام ١٩٢٧ ، ١٩٣٩ من خير الفترات أو قل أهمها لما ظهر فيها من آثار وأبحاث .

وجاءت الحرب العالمية الثانية فتوقفت أعمال أكثر البعثات فى الشرق ولكن

---

(١) ظهرت أبحاث كثيرة لأعضاء هذه البعثات ظهر منها حتى عام ١٩٤٨ عدد ٢١ كتيباً فى مجموعة (OC) Oriental Institute Oommunication وهى التقارير التمهيدية عن أعمال الحفائر كما نشر المعهد ٦٥ مؤلفاً ضخماً عن نتائج الحفائر وهى مجموعة أخرى تحت عنوان (OIP) Oriental Institute Publication . وكانت ، وما زالت ، عناية المعهد بآثار العراق أكثر منها بآثار غيرها من أمم الشرق القديم ولهذا أصدر ١٤ كتاباً من مجموعة خاصة بعنوان (Assyriological Studies) أما الأبحاث التى لها صبغة تاريخية فقد نشرها المعهد فى سلسلة أخرى بعنوان Studies in Ancient Oriental Oivilization (SAOC) وظهر منها ٢٥ كتاباً . وشجع المعهد نشر مؤلفات هامة أخرى بالمساهمة فى إعدادها وطبعها مثل الكتب الضخمة عن معبد أبيدوس الذى ساهم فيه وجمعية Egypt Exploration Society فى إنجلترا و بعض الكتب الأخرى عن إيران التى ساهمت فى تكاليف طبعها جامعة شيكاجو أيضاً . و بالرغم من أن نشاط طبع المؤلفات قد قل فى السنوات الأخيرة إلا أنه ظهرت بعد ذلك عدة مؤلفات هامة أخرى وما زال المعهد يؤدى بواجبه على أحسن وجه .

ظل بعضها يواصل أعماله وخاصة ما كانت تصرف عليه حكومات هذه البلاد مثل مصر والهند والعراق ، وانصرف بعض الباحثين أثناء تلك السنوات الكئيبة للدراسة ولم تكد الحرب تنتهى حتى بدأ العلماء نشاطهم فى نشر نتائج عملهم فامتازت السنوات بين ١٩٤٨ ، ١٩٥٢ بكثرة ما ظهر من الكتب عن تاريخ بعض ممالك الشرق كما امتازت أيضاً بظهور مقالات كثيرة فى المجلات العلمية سواء عن الأبحاث الأثرية التى قام بها أصحابها أو أنباء الاكتشافات بوجه عام .

وقبل أن نتكلم عن الجديد فى الأبحاث التاريخية والأثرية فى بلاد الشرق القديم يجب أن نقف قليلا لنعرف المقصود من هذا التعبير وما هى حدود بلاد الشرق القديم ومدى اتصالها ببعضها

٢ — حدود بلاد الشرق القديم

إذا سمع الإنسان كلمة « الشرق » فإن الذهن ينصرف فى الحال إلى جميع بلاده بما فى ذلك الصين والهند ولكن الأبحاث الأثرية فى أولاهما لم تكد تبدأ بعد بالرغم من أنه ليس لدي أحد ظل من الشك فى أن الصين القديمة كانت مهداً للحضارة مثل بلاد الرافدين ومصر والهند ولكن معارفنا الحالية عنها لا تساعدنا على الحديث عنها أو أثرها على غيرها من البلاد ، وليس يشك أحد أيضاً فى أن أقرب الحضارات إليها كانت حضارة الهند وعند هذه النقطة يقف الباحثون مترددين مرة أخرى هل يعتبرون حضارة الهند القديمة وعلى الأخص حوض السند من ضمن بلاد الشرق القديم أو يتركونها لتكون مع الصين وما تلاها من بلاد الشرق الأقصى مجموعة أخرى ! ! ولكن الرأي السائد بين علماء تاريخ الشرق القديم هو ضم حضارة وادى السند إلى ما نعرفه من حضارات بلاد الهلال الخصيب وما اتصل بها مثل الأناضول (بلاد خـتّى) وإيران وبلاد العرب أي أن طرفى الهلال لم يعودا يرتكزان فى مصر والعراق وإنما يرتكز أحد هذين الطرفين فى البنجاب ويرتكز الطرف الآخر فى مصر لأنه قد ثبت أن جميع الحضارات والثقافات فى هذه المجموعة من بلاد الشرق القديم كانت متصلة ببعضها فى الألف الرابع قبل الميلاد وأن حضارة بعضها أثرت فى البعض

الآخر ولم تكن بمعزل تام عن بعضها ، وكانت هناك رقعة كبيرة من الأرض فى آسيا وشمال أفريقيا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط تسكنها شعوب جعلت من تلك البقعة من العالم المسرح الذى تطورت عليه حضارة الإنسان وتقدمه الفكرى . ولكن بالرغم من تبكير قبرص وكريت فى الاتصال بحضارات غيرهما فإن علماء التاريخ يفضلون الاقتصار – عندما يتحدثون عن الشرق القديم على البلاد التى كانت فى القارتين الأسيوية والأفريقية فقط جاعلين من حضارة كريت وقبرص أساس مجموعة أخرى من الحضارات التى دانت دون شك بالكثير لحضارات الشرق القديم ولكنها اتخذت لها طريقاً آخر وظهرت فيها ثقافات ذات طابع مختلف .

وعلى هذا فإن أهم البلاد فى الشرق القديم هى :

١ – وادى النيل – ولا يقتصر على مصر فقط بل يشمل النوبة والسودان الشمالى .

٢ – بلاد الرافدين – وما نشأ فيها من حضارات سومر وأكد وبابل وميتانى وأشور . . . إلخ

٣ – إيران

٤ – وادى السند – (الپاكستان) والهند

٥ – الأناضول (بلاد ختى) وسوريا (ويقصد بها الشاطئ الفينيقى وسوريا الحالية وفلسطين وشرقى الأردن)

٦ – الجزيرة العربية

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على هذه البلاد لوجدنا أنها تختلف اختلافاً كبيراً فى طبيعتها فمنها ما يعتمد على الأنهار مثل مصر والعراق ووادي السند ومنها ما هو جبلى وتسود فيها أرض الحشائش فى بعض الأحيان وبعضها تتخللها صحارى شاسعة تكاد تنعدم فيها الحياة ومنها أيضاً ما يعتمد فى رفاهيته على وقوعه على ساحل البحر ولهذا لا يمكننا أن نظل نردد ما كان يقول به بعض المؤرخين أو المفكرين من أن الحضارات لا تنشأ أو تزدهر إلا عند دلتا الأنهار مثل دلتا النيل ودلتا الرافدين أو السند أو دلتا نهر الوانج – هو فهناك عوامل

أخرى لها أثرها الفعال مثل البحيرات الداخلية وكمية الأمطار التى تسقط فى بعض المناطق . وقبل أن نترك هذا الموضوع بالذات وننتقل إلى نقطة أخرى يجب أن نضع فى أذهاننا حقيقة ثابتة وهى أن حضارتى مصر والعراق هما أقدم الحضارات وأهمها وأن ما ظهر فى البلاد الأخرى من حضارات أو ثقافات كان دون شك أقل شأناً من مصر والعراق واعتمد على واحدة منهما أو الاثنين معاً فقد كانت هاتان الحضارتان تلتقيان فى سوريا وهذا هو السبب الذى جعل لدراسة آثار سوريا أهمية كبرى لأن حضارات مصر والعراق والأناضول وجزر بحر ايجه كانت تلتقى فى هذه البقعة ، ولنترك الآن هذا الموضوع لنعود إليه بشيء من التفصيل مرة أخرى ولنطرق موضوعاً آخر وهو المقارنة بين نشأة الحضارة فى كل من مصر والعراق وأيهما أقدم عهداً من الأخرى .

٣ ـ أيهما أقدم ، حضارة مصر أم حضارة العراق ؟

اختلف علماء التاريخ القديم اختلافاً كبيراً فيما بينهم عند الإجابة على هذا السؤال فى أبحاثهم التى ظهرت فى الثلاثين عاماً الأخيرة فمنهم من تعصب وما زال متعصباً لمصر ومنهم من تعصب وما زال متعصباً للعراق ولكن تعصب هذا العالم أو شك ذلك الباحث لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً فقد نشأت فى الألف الرابع قبل الميلاد فى كل من مصر والعراق ثقافات قائمة بذاتها وأخذ كل منها يتقدم على انفراد وتطورت الحياة الاجتماعية فى كل من البلادين تطورها الطبيعى وقد توصل سكان العراق القدماء من الوصول فى بعض النواحى إلى درجة من التقدم جعلتهم يسبقون إخوانهم فى وادى النيل فوصلوا إلى ما لم يصل إليه سكان مصر فى العصر الذى نسميه عصر ما قبل الأسرات .

ومن الثابت أيضاً ـ وفقاً لأحدث النتائج التى وصلت إليها أبحاث الأثريين ـ أن جميع شعوب الشرق القديم كانت على صلة ببعضها وكانت التجارة قد عرفت طريقها بين هذه الشعوب كما أخذت الهجرات تتوالى بين بعضها وبعض ، فاتصلت مصر والعراق وكانت مصر إذ ذاك تجتاز فترة انتقال وتطلع فأثمرت هذه الصلة وأخذت مصر من العراق شيئاً من مظاهر حضارته

مثل الأختام الأسطوانية التى عثر عليها فى مقابر ما قبل الأسرات وبعض مقابر الأسرة الأولى المصرية ، وهذه الأختام الأسطوانية . كانت معروفة فى العراق فى العصر الذى يطلق عليه الأثريون الآن عصر قبيل اختراع الكتابة[1]. ولم يقتصر الأمر على الآثار الصغيرة التى يسهل نقلها كإحدى سلع التجارة مثل الأختام الأسطوانية أو رؤوس الدبابيس وغيرها بل تعداها إلى أشياء أخرى أعمق أثراً مثل بعض مظاهر العمارة كبناء الجدران ذات الفجوات الطولية recessed brick building وبدأت تظهر فى الفن المصرى تأثيرات أخرى مثل رسم السفن العراقية التى يرتفع كل من مؤخرتها ومقدمتها ارتفاعاً عمودياً ورسم الحيوانات ذات الأجنحة أو الحيوانات ذات الأعناق الطويلة التى تتقاطع مع بعضها أو الرسم السوميرى المشهور الذى يمثل محارباً بين أسدين .

ومما يثبت أن مصر أخذت هذه الأشياء عن العراق إن أكثر هذه التأثيرات والمظاهر الفنية ظلت فى العراق إلى آخر أيامه بينما اختفت من مصر بعد الأسرة الأولى لأنها كانت غريبة على البلاد وعلى ذوق أبنائها فمصرت منه ما استساغته

---

(١) يطلق اسم عصر ما قبل الكتابة أو قبيل اختراع الكتابة Protoliterate Period فى بلاد العراق على الفترة بين ٣٧٥٠ ، ٣١٠٠ ق . م . وتنقسم هذه الفترة إلى قسمين أولاها بين ٣٧٥٠ ، ٣٥٠٠ وتسمى Early Protoliterate Period والفترة الثانية بين ٣٥٠٠ ، ٣١٠٠ Late Protoliterate Period ثم يلى ذلك أى ابتداء من عام ٣١٠٠ تقريباً فى جنوبى العراق العصر المسمى عصر الأسرات المبكر Early Dynastic Period وهو يقابل فى مصر الوقت الذى تم فيه توحيد البلاد كلها تحت حكم ملك واحد وبدء الأسرة الأولى ، وليس معنى ذلك أن بدء حضارة مصر أو العراق بدأت فقط فى الألف الرابع قبل الميلاد فإن الحضارة فى كل من البلدين نشأت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة ويرى فرانكفورت (HENRI FRONKFORT, *The Birth of Civilization in the Near East,* إن الحضارة السوميرية بدأت فى شمال العراق حوالى عام ٥٠٠٠ ق . م . وذلك فى العصر المسمى « عصر حسونه » ويقابل فى مصر العصر التاسى (نسبة إلى قرية دير تاسا فى مديرية أسيوط) .

أما كونتنو G.CONTENAU, *Manuel d'Archéologie Orientale*) IV, Paris 1947, p. 2063-65 فيرى أن توحيد الدلتا والصعيد فى مصر وابتداء الأسرة الأولى تم فى الوقت الذى كانت تجتاز فيه بلاد العراق عصر الوركا إلى عصر جمدة نصر وهو يتفق فى ذلك مع أكثر المؤرخين . ولكن يبقى بعد ذلك نقطة هى مثار الخلاف وهى تحديد التاريخ الذى اعتلى فيه الملك المصرى « منا » العرش وأسس الأسرة الأولى المصرية ، وسأعود إلى هذه النقطة بشىء من التفصيل فى هذا البحث .

ونبذت ما عداه . وقد حملت كثرة تأثيرات فن بلاد العراق فى الفن المصرى فى ذلك العصر المبكر ، بعض علماء الآثار على القول باحتمال هجرة كبيرة من بلاد الرافدين إلى النيل بل وصل بعضهم إلى القول باحتمال غزو أو أن أصل الملك مينا من بلاد سومر ! ! ! وهى فروض لا تقوم على أى أساس علمى سليم بل هى فروض يغلب عليها الخيال لأن كل ما نراه فى مصر من تأثيرات سومرية جاء عن طريق الصلة التجارية ، وكما عثر فى مصر على آثار من العراق فقد عُثر أيضاً فى العراق على آثار من مصر وظهرت فى فنونها تأثيرات مصرية كما سنرى ، ولكن قبل أن نتحدث عن أثر مصر على حضارة العراق يجب أن نتكلم بشىء من التفصيل عن اختراع الكتابة وأى البلدين كان أسبق فى الوصول إليها .

اختراع الكتابة : هنالك اتجاه حديث بين بعض الباحثين فى تاريخ الشرق القديم لينسب إلى العراق فضل السبق فى اختراع الكتابة وليس لدى هؤلاء الباحثين دليل مادى يستندون عليه بل يعتمدون على ما يعتقدون أنه قرائن وأحدث ما ظهر فى هذا الموضوع ما ساقه فرانكفورت فى كتابه المسمى مولد الحضارة فى الشرق الأدنى الذى سبق أن أشرت إليه . ولكن بالرغم من ميل فرانكفورت للقول بأن العراق كانت أسبق وجد نفسه مضطراً فى النهاية إلى التردد فيعترف فى ص — ١٠٦ من كتابه بأن الكتابة عند ظهورها فجأة فى الأسرة الأولى فى مصر لم تكن بدائية بحال من الأحوال بل أنها مرت بفترة طويلة من التطور إذ نجد فيها علامات لتأدية المعانى ideograms وعلامات صوتية phonetie signs ومخصصات determinatives وهذا ما حدث بالضبط فى العراق فى عصر ما قبل الكتابة ولكن يراجع فرانكفورت نفسه فيقول أن هذا التشابه لا يمكن اعتباره دليلا كافياً على أن مصر تعلمت طريقة الكتابة من العراق ثم يستدرك فيقول مرة أخرى بأن أخذ المصريين للكثير من أساليب الفن السومرى وطريقة رسم الحيوانات والإشخاص بل وبعض المصنوعات أيضاً يجعلنا نميل إلى القول بأنه من الجائز أن يكون إعجاب المصريين بالفن العراقى وحضارته جعلهم يأخذون طريقة الكتابة أيضاً . ثم يستطرد فرنكفورت قائلا إن سكان

العراق اخترعوا الكتابة لتخدم أغراضاً عملية فى إدارة البلاد والأعمال الأخرى بينما كانت الكتابة فى مصر مستعملة لأغراض أخرى أهمها خدمة الفن بوصفها إلى جانب بعض الرسوم لتوضيحها وينتهى فرانكفورت من بحثه بترك الموضوع دون إبداء رأى قاطع ويقول بأنه من الجائز أيضاً أن تكون الكتابة نشأت مستقلة فى كل من البلدين ولكنه يرجح أثر العراق على مصر .

وإذا كان علماء الآثار العراقية يرحبون بمثل هذا الرأى فإن زملاءهم علماء الآثار المصرية لا يرون ذلك . فإننا إذا فحصنا هذا الموضوع بعناية فإننا نرى أن الاتصال بين مصر والعراق فى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد كان لفترة محدودة ولم يستمر بعد الأسرة الأولى لأنه لم يوافق الذوق المصرى . ولم تكن مصر فى تلك الفترة بالذات أقل ثقافة أو حضارة من العراق بل أنها كانت تفوقها فى بعض النواحى وأن اقتباس المصريين لبعض الأساليب العراقية دليل على نضوج الإدراك الفنى فى مصر وتطلعه إلى آفاق أبعد من الآفاق المحلية ، وإذا كانت للعراق تأثيرات على الفن المصرى فقد أثرت مصر بدورها على العراق وكان لحضارتها فضل غير منكور على تطور الحضارة فى عصر أسرة أور إلى الحد الذى يعتقد فيه بعض كبار علماء الآثار العراقية مثل پارو Parrot بأن أصل « الزاقورة » مأخوذ من بناء الهرم المدرج الذى شيده المصريون فى الأسرة الثالثة(١) . وعلى هذا يكون التيار أتى من العراق إلى مصر فى عصر ما قبل الأسرات ولكن تيار الثقافة أخذ يتدفق من مصر إلى العراق أثناء الدولة القديمة ، ويجب أن نفرق بين تعبيرين وهما الثقافة والحضارة ونحن لا نشك فى أن بعض تأثيرات ثقافية من العراق وجدت قبولا فى مصر أما نشأة الحضارة فقد كانت مشتعلة فى كل من البلدين وكان تطور الحضارة فى مصر أسرع منه فى العراق وهذا ما جعل العالم كله يعتقد — وهو مصيب فى اعتقاده إلى حد كبير — بأن

---

(١) انظر البحث الذى كتبه جلبير أخيراً : P. GILBERT, *Synchronismes artistiques entre l'Egypte et Mespotamie de la periode thinite à la fin de l'Ancien Empire Egyptien,* فى مجلة *Chronique d'Egypte*, No. 52, (1951), p. 225-36. وذكر فيه الكثير من آراء علماء الآثار العراقية عن تأثيرات مصر فى فنون العراق .

مصر قد سبقت بحضارتها جميع بلاد العالم القديم .

أما عن أصل الكتابة فإنه لا يمكننا التسليم بما أثاره فرنكفورت وغيره من شكوك فإن أبحاث علماء اللغات(١) وعلماء الآثار المصرية(٢) أثبتت بشكل قاطع أن المصريين اخترعوا الكتابة فى الألف الرابع قبل الميلاد وإذا كانت هناك بعض مشابهات فى طريقة التعبير بين الكتابة فى مصر والكتابة فى العراق فإن هذه المشابهة إما أن تكون عرضية أو أن تكون العراق هى التى تأثرت بمصر . وقد أثبتت أبحاث جميع العلماء وعلى رأسهم زيته وجاردنر وأخيراً جداشُت(٣) بأن الهيروغليفية نشأت فى مصر وتطورت فيها دون أى مؤثر خارجى .

٤ — متى بدأت الأسرة الأولى فى مصر ؟

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى وهى تحديد تاريخ تأسيس الأسرة الأولى فى مصر فقد اختلفت كتب التاريخ فيما بينها ولم يسلم من هذا الاختلاف أحدث الكتب التى ظهرت عن تاريخ مصر فى الأعوام القليلة الماضية مثل كتاب ويلسون(٤) وكتاب شارف — مورتجات(٥) وكتاب آخر تعاون فيه فريق كبير من العلماء الفرنسيين بينهم ڤاندييه عالم الآثار المصرية(٦) وكتاب فرنكفورت(٧)

---

(١) ZYHLARZ, *Ursprung und Sprach character des altagyptischen* (*Zeitschrift für Eingebovenen Sprachen*) Bd. 23.

(٢) A. SCHARFF, *Archalologische Beitrâge zur Frage der Entstehung der Hieroglyphens chrift, Mûnchen* 1942.

(٣) SIEGFRIED SCHOTT, *Hieroglyphen, Untersuchungen Zum Ursprung der Schrift, Wiesbaden*, 1951.

ويرى الباحث فى هذا الكتاب جميع الآراء والمراجع الهامة عن أبحاث العلماء الذين تناولوا موضوع أصل الكتابة المصرية أو لغتها .

(٤) JOHN A. WILSON, *The Burden of Egypt, Chicago*, 1951.

(٥) SCHARFF-MOORTGAT, *Agypten und Vorderasien im Altertum, Leipzig*. 1950.

(٦) *Les Premières Civilizations, Paris* 1950.

وقد تعاون فيه AYMARD, VANDIER, DHORME, JOUGUET CHAPOUTHIER, CONTENAU

(٧) H. FRANKFORT, *The Birth of Civilization in the Near East, London* 1951.

الذى ناقشنا بعض نقطه والطبعة الجديدة من كتاب جوردن تشيلد[١] فنرى أن چون ويلسون حدد عام ٣١٠٠ للأسرة الأولى واتفق معه فى ذلك فرانكفورت أما شارف فقد ناقش هذا الموضوع بالتفصيل وخرج من بحثه بأن بداية الأسرة الأولى فى مصر يجب أن تكون حوالى عام ٢٨٥٠ ق . م . ولم ير ڤانديييه وزملاؤه ما يدعو إلى تغيير التاريخ القديم وهو ٣٢٠٠ ق . م . فظلوا متمسكين به أما جوردن تشيلد فإنه حدد الأسرة الأولى فى مصر فى جدوله فى ص — ٢٣٢ من كتابه بأنها بين ٣٢٠٠ ، ٢٨٥٠ أى بين الرأى القديم ورأى شارف دون إعطاء تاريخ معين .

ولو أننا وازننا بين المناقشات المختلفة لوجدنا أن شارف بالغ بعض المبالغة فى تحديد عام ٢٨٥٠ كما أنه لم يصبح فى استطاعتنا بعد ظهور نتائج الحفائر والأبحاث التاريخية فى العراق واتضاح معاصرة الأسرة الأولى لعصر جمدة نصر أن نظل متمسكين بالتاريخ القديم وهو ٣٢٠٠ وربما كان أقرب تاريخ إلى الصواب هو ٣١٠٠ ق . م . وهو رأى المعهد الشرقى بشيكاجو بعد الأبحاث المقارنة الطويلة[٢] . يكفينا هذا القدر عن مصر والعراق فلنتركهما الآن ونذهب نحو الغرب لنعرف آخر أنباء الأبحاث فى وادى السند .

٥ — حضارة وادى السند

أشرت فى مستهل هذا البحث إلى حضارة وادى السند وضحت بأن الأبحاث

---

(١) V. GORDON CHILDE, *New Light on the Most Ancient East*, (*the new 4th. edition*) 1952.

(٢) لم يكن تحديد ٣٢٠٠ ق . م . لحكم الملك « منا » مقبولا من جميع رجال التاريخ المصرى فنعرف مثلا أن بورخارت L. Borchardt كان يعتقد أن ذلك يقع بين عامى ٤٠٥٠ ، ٣٨٥٠ قبل الميلاد وما زالت مرجريت مري تؤمن بما أبداه بترى منذ مدة طويلة وذكرت فى كتابها الأخير : MARGARET MURRAY, *The Splendour that was Egypt*, *London*, 1949. بأن بدء الأسرة الأولى هو عام ٤٧٧٧ ق . م . ولكن أبحاث المؤرخ الألمانى العظيم أدورد ماير Eduard Meyer نزلت بهذه التواريخ المرتفعة وقبل أكثر العلماء ومن بينهم برستد Breasted آراءه ولكننا ما زلنا نرى بعض الاختلاف فنقرأ أحياناً ٣٤٠٠ وأحياناً ٣٣١٥ وأحياناً أخرى ٣٢٠٠ أو ٣١٨٠ .

الأثرية ما زالت فى أدوارها الأولى ، والمقصود من حضارة السند هو ما ظهر حتى الآن من أبحاث فى غرب شبه الجزيرة الهندية وهو يتبع الآن دولة الپاكستان ولكن عند ظهور نتائج حفائر « موهنچودارو » و « هارا‌پا » عرف العالم تلك الحضارة باسم حضارة الهند ولهذا فالعلماء الآن فى حيرة لإيجاد تسمية لائقة وخير ما يمثل هذه الحيرة أن أحدث مؤلفين عن هذه الحضارة كتبها شخصان عمل كل منهما فى تلك البلاد وقام بنصيبه من الحفائر فيها وهما « هويلر » و «پيجُّوت» وكان أولهما المدير العام لآثار الهند قبل إنشاء دولة الپاكستان . ظهر لكل منهما كتاب فى عام ١٩٥٠ وهما :

R.E.M. Wheeler, Five Ihousand Years of Pakistan, An Archaeological outline, London 1950.

والثانى

Stuart Piggott, Prehistoric India to 1000 B.C. (Penguin Books, London, 1950.

ونرى من عنوانى الكتابين أن « هويلر » أطلق اسم الدولة الجديدة على هذه الحضارة بينما ظل زميله « بجُوت » على التسمية القديمة ولكن مهما كان أمر التسمية فإننا نعرف أن الحضارة التى نحن بصددها نشأت وتطورت فى وادى السند ولهذا فضلت إطلاقه عليها .

وقد أوضحت الأبحاث التى تمت هناك بأنه كانت فى هذه المنطقة من بلاد الشرق ثقافة خاصة تأثرت بصلتها بالثقافات التى كانت فى غربيها وخاصة فى بلوخستان والهضبة الإيرانية . ولست أريد فى هذا البحث أن أصف مظاهر حضارة وادى السند أو أتحدث عن تاريخ الأبحاث الأثرية فيها ولكن أرى من واجبى أن أذكر شيئاً قليلا من هذا وذاك . فقد أصبحنا نعرف الآن أنه كانت لهذه البلاد حضارة قديمة وكانت هذه الحضارة مزدهرة فى الألف الثالث والألف الثانى قبل الميلاد وأن آثار هذه الحضارة باقية حتى اليوم فى بقايا المدن التى تم كشفها ، وعشرات بل ومئات المدن الأخرى التى مازالت تغطيها الرمال ، وكانت لهذه الحضارة كتاباتها (ولم يتيسر حل رموزها بعد) وكانت متصلة بغيرها من شعوب العالم ولكنها فجعت فجيعة كبرى فى منتصف

الألف الثانى قبل الميلاد (حوالى عام ١٥٠٠) عندما هجمت عليها قبائل آرية فاستولت على المدن وخربتها وأذلت السكان وقضت على حضارتهم فظلت البنجاب ووادى السند وغيرهما من بلاد الهند فى حالة ركود تام حتى وجد الناس لهم فرصة للنهضة ولكنهم استعملوا عند ذاك كتابة جديدة كان أقدم ما وصل إلى أيدينا منها نقوش « أزوكا » Asoka فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، وليس بين أيدى العلماء مرجع لتاريخ هذه الفترة الطويلة إلا ما بقى فى الأساطير الدينية أو ما عساه أن يكون قد كتبه عنها بعض جيرانها .

لم تبدأ الحفائر العلمية فى وادى السند والبنچاب إلا فى عام ١٩٢٠ وخاصة فى خرائب هراپّا Harappa بمعرفة أحد الأثريين الهنود « دايا رام ساهنى » Daya Ram Sahni وبعد عامين آخرين أخذ أثرى هندي آخر « ر . د . بانرچى » R.D. Banerji ينقب فى خرائب مدينة أخرى وهى « موهنچو دارو » Mohenjodaro ونجح كل منهما نجاحاً كبيراً فى عمله ولكن السير چون مارشال John Marshall الذى كان مديراً لآثار الهند إذ ذاك تولى العمل بنفسه فكان عمله فى موهنچو دارو بين ١٩٢٢ ، ١٩٣١ وفى هراپّا بعد حفائر ١٩٢٠ — ١٩٢١ اشتغل عامى ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ .

وفى الفترة التى كان السير مارشال ومعاونوه يحفرون فى وادى السند كان السير أورل ستين Aurel Stein يوالى أبحاثه فى بلوخستان فى الجهة الغربية من وادى السند ووجد من بقايا الحضارة القديمة ما أثبت بشكل قاطع الصلة بين شمال غرب شبه جزيرة الهند وبين إيران والعراق فى عصر ما قبل التاريخ ، وكان أثرى هندى آخر لا يكل فى أبحاثه يوالى اكتشافاته فى وادى السند أيضاً بين أعوام ١٩٢٧ ، ١٩٣١ وهو المرحوم ما جومدار N.G. Majumdar الذى قتله اللصوص أثناء تجولاته بحثاً عن المناطق الأثرية فى جبال كِرثار Kirthar فى عام ١٩٣٨ .

وفى عام ١٩٣٥ — ١٩٣٦ كان إرنست ماكاى Ernest Mackay يساعد السير مارشال فى الهند ثم قام وحده بالحفر فى خرائب مدينة Chanhudaro تشانهو دارو وهى إحدى المدن فى وادي السند وكانت مزدهرة فى عصر هاراپّا .

ولم يؤثر اندلاع الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ على سير الأبحاث الأثرية فظل السير أورلستين يوالى أبحاثه فى مقاطعتى راجبوتانا Rajputana ولاس بيلا Las Bela حتى عام ١٩٤٥ وأضاف كثيراً من المعلومات الهامة عن ثقافة وفنون تلك البلاد فى أقدم عصور تاريخها ، وقد ظهرت نتائج حفائر هاراپّا وموهنچو دارو وتشانهو دارو فى ثمان مجلدات بين أعوام ١٩٣١ ، ١٩٤٣ .

وبعد الحرب العالمية الثانية دخل ميدان البحث حفار جديد كان له من خبرته السابقة فضل على تقدم الأبحاث الأثرية باتباعها الأساليب العلمية ، وهذا الباحث هو هويلر Mortimer Wheeler الذي أعاد بحث هاراپا وموهنجو دارو بين أعوام ١٩٤٥ ، ١٩٤٨ ووصل إلى نتائج لم يلتفت إليها السير مارشال من قبل وخاصة عن تخطيط الجزء العلوى من المدينة .

ولسنا هنا بصدد مناقشة نتائج تلك الحفائر ويكفى أن يطلع الإنسان على تقارير الباحثين ليدرك مدى تقدم سكان وادى السند القدماء فى فن العمارة كما تشهد بذلك بقايا مدنهم التى يرجع وقت ازدهارها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد .

ولا شك فى أن البلاد كلها على اتساعها كانت تسودها حضارة واحدة لشعب من أصل واحد وإن تعددت مظاهر الثقافة فى الأرجاء المختلفة وقد ترك هذا الشعب العظيم وراءه كثيراً من مظاهر تقدمه الفنى فى اللوحات الصغيرة والأختام والأدوات الأخرى وبعض التماثيل للآلهة وللأشخاص وأهمها جميعاً تمثال من الحجر عثر عليه فى هجو دارو ، وجدير أيضاً بالذكر تمثال صغير من البرونز تدل صناعته على ذوق فنى ممتاز وبعض القلائد التى تشبه تماماً بعض القلائد المصرية القديمة فى عهد الدولة القديمة .

وأنه وإن كانت الأبحاث الأثرية فى وادى السند ما زالت فى أول مراحلها فإن ما ظهر منها كاف للتحقيق من أن هذه الحضارة نشأت بين أهل البلاد الأقدمين وكان لها طابعها الخاص ، ولم يكن سكان بلاد وادى السند بمعزل عن حضارات العالم الأخرى بل كانوا متصلين بسكان إيران القدماء وكان أوج صلتهم ببلاد العراق حوالى عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد عندما أخذت بعض

آثار وادى السند تجد سبيلها إلى بلاد سومر حيث عثر عليها هناك(١) .

٦ — إيران

وهذا بلد آخر من بلاد الشرق القديم أخذ يحتل مكاناً مرموقاً لدى علماء التاريخ والآثار فقد انتهى الوقف الذى كنا نبدأ فيه معلوماتنا عن هضبة إيران بالقرن الثامن قبل الميلاد (٧١٥ ق . م .) عندما بدأ الميديون يظهرون كدولة ازدهرت فى عهد كيروس فى منتصف القرن السادس وبلغت أوجها أيام قمبيز وداريوس الأول اللذين خلفاه على عرش تلك البلاد .

كان تاريخ إيران قبل هذه العائلة يدرس كجزء من تاريخ العراق فهى تارة تحت حكم أشور أو بابل وتارة أخرى تهجم بعض قبائلها على بلاد الرافدين وإذا كان هناك ذكر لحضاراتها القديمة قبل الميديين فإن ذلك ينحصر فى الجزء الغربى من الهضبة وهو الجزء المجاور لدلتا الدجلة والفرات أى المنطقة الواقعة حول « سوسا » والتى يعرفها علماء الآثار تحت اسم عيلام . ولكن الأبحاث الأثرية الحديثة فى الهضبة الإيرانية جاءت بكثير من المعلومات الجديدة وربطت تاريخ إيران فى أقدم عصوره بما كان فى العالم القديم من حضارات وما زال العلماء متعطشين لمعرفة المزيد عن هذه الحضارة وصلتها بما يجاورها إلى الشمال أى فى جنوبى الروسيا بعد أن ثبتت صلتها بما كان فى شرقها وفى غربها من حضارات.

وآخر الأنباء الأثرية الهامة من إيران هو عثور جرشمان Ghirshman

---

(١) أهم المؤلفات التى ظهرت عن حضارة السند هى :

J. MARSHALL (AND OTHERS), *Mohenjdaro and the Indus Culture.*

E. MACKAY, *Further Excavations at Mohenjodaro* (1938).

N.G. MAJUMDAR, *Explorat ons in Sind* (1934).

N.S. VATS, *Excavations at Harappà* (1940)

وتوجد أبحاث عدة على أكبر جانب من الأهمية فى سلسلة الأبحاث المنشورة فى Ancient India منذ عام ١٩٤٦ حيث نجد مقالات عدة عن حفائر موهنجو دارو وهارابا فى الفترة الأخيرة كتبها أثريون عديدون بينهم هويلر وبجوت اللذين وضع كل منهما كتاباً سبقت الإشارة إليه .
وأحدث بحث ظهر عن هذه الحضارة ما كتبه عنها جوردون تشيلد فى كتابه *New Light on the Most Ancient East* (4th. *Edition*, 1952), *Chapter* IX, p. 172 ff.

مدير بعثة الآثار الفرنسية هناك على كهف فى ناحية « تانج — اى — پابدان » فى جبال البختيارى ، وفى هذا الكهف عثر العالم الفرنسى على أول مظاهر التقدم الإنسانى فى تلك البلاد عندما بدأ الإنسان يسعى للصيد وكان يستعمل لذلك أدوات الصوان كما بدأ أيضاً يصنع أوان من الفخار ليحفظ فيها قوته . ويرجع تاريخ سكان هذا الكهف إلى العصر النيوليتى وهو العصر الذى كان يعيش فيه سكان الهضبة فى الكهوف ويعتمدون فى حياتهم على الصيد ؛ ولكنهم أخذوا يغيرون من طريقة حياتهم شيئاً فشيئاً عندما بدأ عصر الجفاف ينتشر فى آسيا وأخذت الوديان تجف رويداً رويداً فتحولت بقاع كثيرة إلى مناطق جدباء . وفى ذلك الوقت أيضاً أخذت البحيرة الكبرى فى وسط الهضبة فى الجفاف واضطرت الحيوانات لترك الجبال لتعيش على مقربة من البحيرات الصغيرة فى المنخفضات .

كان هذا فى الألف الخامس قبل الميلاد وهو الوقت الذى بدأ الإنسان فيه فى هذه البقعة من العالم يترك حياة الكهوف وبدأ يستقر فى السهول ومنذ هذا الوقت نستطيع أن نتتبع الخطى التى خطاها هذا الإنسان فى تكوين ثقافته والاتجاه الخاص الذى اتجهه نحو الحضارة . وكانت منطقة « سبيالك » هى أهم المناطق التى أمدت جرشمان بالمعلومات الأساسية عن أقدم حضارة فى إيران ، وسيالك هذه على مقربة من « قاشان » جنوبى طهران ومن نتائج حفائر جرشمان أصبحنا نعرف أن العصر المسمى «سيالك ١» هو نهاية العصر النيوليتى (١) ومع « سيالك ٢ » يبدأ عصر ما قبل الأسرات وهو حوالى ٤٠٠٠ قبل الميلاد وهو الوقت الذى بدأ فيه سكان الهضبة يستعملون الطوب فى مبانيهم كما بدأوا أيضاً

---

(١) من أهم مميزات فخار « سيالك ١ » أنه فى الغالب أسود اللون وفيه زخارف محفورة تملأ باللون الأبيض فيعطى ذلك للفخار شكلا فيه ذوق ومظهر لا يخلو من جمال . وليس هذا النوع من الفخار خاصاً بإيران بل إنه كان معروفاً قبل العثور عليه فى سيالك وخرج من حفائر سكشجوزى فى شمال سوريا ومن مجس نزل إلى أعماق تل نينوى فى العراق وأخيراً من تل حسونة جنوبى الموصل — انظر MOORTGAT, *Vorderasien bis zum Hellenismus*, p. 210

يصنعون فخاراً يزينونه برسوم الحيوانات (١) .

ويرى جرشمان أن الحضارة الإيرانية أخذت تنتشر فى جميع أرجاء الهضبة ويقول بأن لديه من الأدلة الأثرية ما يثبت أن هذه الحضارة عمت جزءاً كبيراً من آسيا فى عصر ما قبل الأسرات إذ وصلت شرقاً حتى حوض السند (موهنچو دارو) ووصلت غرباً إلى أن وصلت إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ووصلت شمالا إلى التركستان والقوقاز كما أنها اتصلت أيضاً بمراكز الحضارة الأخرى فى العراق وسوريا والأناضول . ولكن هذا التأكيد من جانب جرشمان يجب أن نقابله بشيء من التحفظ لأن هناك أبحاثاً أخرى وفيها أدلة على أنه ربما كانت الأناضول وشمال سوريا مركزاً لحضارة كبيرة عمت كثيراً من بلاد آسيا فى ذلك الوقت البعيد وأن ما ظهر فى إيران والتركستان وبلوخستان ووادى السند كان متفرعاً منها .

ومهما كانت تفسيرتنا فى سبب هذه الحضارة أو منشأها فإن هناك حقيقة لا يمكن إنكارها وهى أنه فى الألف الرابع قبل الميلاد كانت هناك حضارة تعم هضبة إيران ولهذه الحضارة مميزاتها الخاصة .

ولم يمض غير قليل حتى بدأت هذه الحضارة فى التفكك وكان ذلك فى منتصف الألف الرابع عندما أخذت بعض المناطق التابعة للهضبة مثل سوسا وأوروك تشق طريقاً خاصاً بها وبدأ الفخار الملون الخاص بإيران يختفى ليحل محله أنواع أخرى وأخذت بلاد الرافدين تتقدم بخطى سريعة فى حضارتها ، ولكن يجب ألا ننسى أن حضارة هضبة إيران كانت مستقلة النشأة عن حضارة العراق ووصل سكان إيران القدماء إلى اختراع كتابة خاصة بهم استعملوها فى القرون الأخيرة من الألف الرابع ولكن منذ ازدهار حضارة مدن العراق فى أوائل الألف الثالث بدأت سلسلة طويلة من الاحتكاك بين الشعبين . ولنترك

(١) نشر جرشمان نتائج حفائره فى مجلدين تحت عنوان

R. GHISHMAN, *Fon es à Sialk,* I. I (1938); I.II (1939).

وقد كتب المؤلف نفسه أخيراً كتاباً آخر وهو

L. Iran, des origines à l'Islam (Paris 1951).

الآن إيران تتعثر تارة وتقف على قدميها تارة أخرى حتى نصل إلى حادث تاريخى هام حدث حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . وكان له أثر عظيم ليس على إيران وحدها بل على جميع بلاد الشرق القديم .

فى هذا الوقت على وجه التقريب بدأت بعض الشعوب تهاجر من مواطنها وتصل إلى غرب آسيا ، ولم تكن هذه الهجرات قد أتت مرة واحدة أو اتخذت شكلا منظماً أو حربياً بل كانت تأتى الشعوب على موجات متتالية تفصلها أوقات بعيدة لتستقر فى الأماكن التى يتيسر فيها العيش . هذه الهجرات هى هجرات الشعوب التى نسميها . الهندو — أوربيه » وقد كتب العلماء كثيراً عنها وعن أصلها والبلاد التى أتت منها واختلف الباحثون فيما بينهم ولكن أرجح وأحدث الآراء هو أنهم أتوا من السهول الأوراسية فى جنوبى الروسيا وقد انقسمت هذه الشعوب أثناء هجرتها العظيمة إلى مجموعتين أولاهما المجموعة الغربية التى كان طريقها يدور حول البحر الأسود واخترقت البلقان وعبر بعضها مضيق البوسفور ووصل إلى آسيا الصغرى واختلط بسكان تلك البلاد وسرعان ما أصبح لهم السيطرة ولم يأت منتصف الألف الثانى حتى وجدنا أنهم أصبحوا على رأس إمبراطورية قوية وهى الإمبراطورية الختية التى كانت عاصمتها فى وسط بلاد الأناضول ، وقد امتدت فتوح مملكة « ختى » فاستولت على بابل وعلى بلاد الحريين وميتانى وأصبحت وجهاً لوجه أمام مصر عندما سعت لبسط نفوذها على سوريا وفلسطين

أما المجموعة الثانية وهى المجموعة الشرقية فإن طريق هجرتها كان حول بحر قزوين وكان من بين هذه الشعوب شعب ذو ميزات حربية كبيرة اخترق سلسلة جبال القوقاز واندفع فى طريقه حتى وصل إلى أعالى بلاد الفرات واستقر بين السكان وهؤلاء هم « الحريون » . وكان من ضمن شعوب هذه المجموعة الشعب الهندو — أوروبى الذى عرف فيما بعد باسم « ميتانى » والذى كون أيضا دولة كبيرة فى وقت من الأوقات شملت جميع بلاد أعالى الفرات وضمت إليها بلاد أشور وأخضعت المنطقة حتى جبال زاجروس حيث كان يقيم « الجويتون » وبلغت ميتانى أوج ازدهارها فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد

عندما تحالفت مع ملوك الأسرة الثامنة عشرة وتزوج بعض ملوك مصر من أميراتها . ولكن هناك فرع آخر من هذه المجموعة سارت شعوبه مع جبال زاجروس الوسطى واخترقتها ثم انحدرت إلى الهضبة الإيرانية فاستقر فيها من استقر وواصل الآخرون سيرهم إلى الأفغانستان وبلوخستان حتى وصلوا إلى وادى السند ، وكانت هذه الهجرة العظيمة التى صاحبتها حروب كبيرة هى السبب فى القضاء على مدن هارايا وموهنجو دارو وغيرهما .

٧ — بلاد العرب

لم يهمل العلماء التفكير فى أهمية دراسة تاريخ وآثار الجزيرة العربية وكثيراً ما حاولوا أن يجعلوا من مناطقها الآثرية وخاصة فى اليمن ميداناً للبحث العلمى المنظم ولكن لم تتحقق حتى الآن هذه الأمانى أو بعضها ولكن بالرغم من ذلك بدأت بضع محاولات وخاصة فى الثمان سنوات الأخيرة أعطت علماء الآثار والتاريخ شيئاً من الأمل فى أن هذه المحاولات ربما كانت بداية موفقة لبحث تاريخ بلاد العرب ومعرفة الدور الهام الذى لعبته فى التاريخ القديم .

وأول معضلة تخطر على ذهن الباحث فى تاريخ الشرق القديم هى رغبته فى معرفة موطن الجنس السامى أو بعبارة أصح معرفة المكان أو الأمكنة التى كانت تهاجر منه الشعوب السامية التى تركت أثراً غير قليل فى تاريخ وحضارة سوريا والعراق وإلى حد ما مصر فى فجر عصور التاريخ . فنحن نعرف أنه منذ عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد أخذت الهجرات السامية تأتى بأقوام استقروا فى العراق ولم يأت عام ٢٥٣٠ قبل الميلاد حتى تمكن أحد زعماء هذه الشعوب السامية من تأسيس مملكة « أكد » وأصبح سرجون أول ملوكها .

ومهما اختلفت آراء الباحثين فى موطن الجنس السامى فإنهم مجمعون على أنه لم يكن بعيداً عن شبه جزيرة العرب فهناك رأى يقول بأن هذا الموطن يقع فى جنوبى سوريا ولكن الجمهرة العظمى من العلماء يميلون إلى جعل هذا الموطن فى صميم الجزيرة ويرى بعضهم أنه بلاد نجد ويرى البعض الآخر أنه اليمن ولكل من الفريقين أدلته وهى تقوم قبل كل شىء على قرائن من الهجرات

التى حدثت فى العصور القريبة أو على مقارنات لغوية ولكن هذه القرائن التى ساقها كل من الفريقين ما زالت فى حاجة إلى التأييد وإن كانت حجج القائلين بأن موطن الساميين كان فى جنوبى الجزيرة أى فى اليمن يلقى ترجيحاً عن الرأى الآخر ، وسنظل على هذا الشك حتى تبدأ الحفائر فى جزيرة العرب وتقص علينا رمالها ما خبأته من أسرار .

ومن الحقائق المعروفة أن قدماء المصريين استعملوا البخور منذ فجر تاريخهم فى المعابد ونعرف أيضاً أنهم اتصلوا منذ فجر تاريخهم بالشعوب السامية التى أتت من الجنوب وعن طريق البحر الأحمر ووصلت إلى وادى النيل عند ثنية قنا . ومنذ الأسرة الخامسة تكثر الإشارة إلى بلاد پونت وحاصلاتها وهى البلاد التى كانت حول بوغاز باب المندب وتشمل كلا من الشاطئين الأسيوى والأفريقى .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن العراق اتصلت بمصر كما اتصلتْ حضارة وادى السند بكل منها فى أقدم العصور وكانت هناك صلات تجارية وإلى حدما ثقافية فى عصر ما قبل الأسرات المصرية وفى الأسرة الأولى أى قبل ٣٠٠٠ قبل الميلاد وكان الطريق الذى تسلكه هذه التجارة هو طريق البحر لأن الطريق البرى استعمله القدماء فى العصور التالية . ومن المرجح أن تكون سفن الهند والعراق كانت تصل إلى جنوبى الجزيرة العربية وربما كانت سفن سكان جنوبى بلاد العرب أو السفن المصرية كانت تنقل هذه التجارة إلى مصر أو ينقلها سكان الجزيرة أنفسهم — فى العصور التالية — بواسطة القوافل من موانئ الجنوب حتى أسواق الشام على ساحل البحر الأبيض المتوسط وخاصة ميناء غزة ، فتبيع ما حملته وترجع ثانية إلى الجنوب محملة بما تجده فى تلك الأسواق .

ويتضح لنا من ذلك بأن سكان الجزيرة العربية القدماء أى فى الألف الثالث قبل الميلاد لم يكونوا بعيدين أو معزولين عن حضارات البلاد الأخرى إذ كان اشتغالهم بالتجارة سبباً فى اتصالهم بغيرهم ، كما ساعدتهم طبيعة الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة أى اليمن وحضرموت للسير فى ركب الحضارة والأخذ بنصيب منها .

يكفينا هذا القدر الآن ولنبدأ الإجابة عن سؤال آخر عن أقدم الآثار التى عثر عليها فى هذه البقعة من العالم ومدى صلتها بغيرها من الحضارات . والجواب على ذلك أنه يجب تقسيم هذا الموضوع إلى قسمين أولهما خاص بأقدم العصور ونشأة الحضارة والقسم الآخر ما أبقى عليه الزمن من آثار المدينة القديمة . فأما عن القسم الأول فإننا نعرف من الأبحاث القليلة التى تيسرت للعلماء أنه عثر فى جنوبى بلاد العرب على أدوات من العصر الحجرى القديم (الپاليوليثى) ولكن الرأى ينقسم بشأنها فترى المس كيتون – تومسون Coton -Thompson بأن أدوات الصوان التى عثرت عليها تشبه تمام الشبه مثيلاتها مما عثر عليه فى شرق أفريقيا سواء فى الشمال أو فى الجنوب[١] ، أما النظرية الأخرى التى نادى بها حزين بعد أبحاثه فى عام ١٩٣٦ فهى أنه لا يؤمن بأن ثقافة جنوبى الجزيرة فى ذلك العهد البعيد فرع أو تقليد لثقافة شرق أفريقيا ويرى أن الركن الجنوبى الغربى من شبه جريزة العرب أقدم ثقافة من شرق أفريقيا وأنه إذا كان ولابد أن أحدهما أثر فى ثقافة الآخر فإن التيار أتى من آسيا[٢]

وعلى ذكر سكان اليمن القدماء أود أن أشير إلى الأبحاث الأنثروپولوجية التى قام بها كارلتون كون[٣] على بعض السكان الحاليين وخرج منها بأن سكان هضبة اليمن فرع من جنس البحر الأبيض المتوسط ، وقد ناقش هذا الرأى علماء آخرون من بينهم أرثر كيث Sir Arthur Keith وكروجمان Krogman ونرى تلخيصاً لآرائهم فى كتاب سكوت هيوز عن اليمن يختمها بقوله :

« إن المنطقة التى كان يعيش فيها الجنس المعروف باسم جنس البحر الأبيض المتوسط كانت تمتد من أسپانيا إلى الهند ، ولكن فرعاً منها اتجه نحو الجنوب على شاطىء البحر الأحمر فوصل بذلك إلى جنوبى بلاد العرب فى آسيا وإلى أثيوپيا والصومال فى أفريقيا . وكان قدماء المصريين فى عصر ما قبل

(١) CATON-THOMPSON, *Climate, Irrigation and Early Man in the Hadramaut,* فى مجلد *Geographical Journal*, 93 p. 18-19.

(٢) S.A. HUZAYYIN فى مجلة *Nature, Vol.* CXI, (1937), p. 513-14.

(٣) CARLETON S. COON, *The Races of Europe* (1939), p. 401.

الأسرات يمثلون الفرع الرئيسى والأكثر حضارة بين الفروع المتعددة من ذلك الجنس . أما الآن فإن أكبر رقعة من الأرض يعيش فيها قوم من سلالة هذا الجنس المتوسط القامة والذى يمتاز بأن مقاييس جماجمه متوسطة بين المستدير والمستطيل (mesocephalic) واستطاع هؤلاء القوم بالاحتفاظ بنقـاء عنصرهم ، هذه الرقعة من الأرض هى جنوبى الجزيرة العربية »(١) . ولكن هذا الرأى ما زال فى حاجة إلى تأييد لأن بلاد العرب بوجه عام لم تدرس من الناحيتين الأنثربولوجية والأثنوجرافية الدراسة اللازمة حتى الآن بل أن هذه الدراسات لم تكد تبدأ فيها ، وفى اليوم الذى تسير فيه هذه الأبحاث مسيرها العلمى المطلوب ويدرس العلماء عادات وتقاليد وآراء سكان الجبال والصحارى هناك الذين احتفظوا فيما بينهم بتراثهم القديم فإن هذه الدراسات تلقى ضوءاً كبيراً على أصل السكان وصلتهم بغيرهم من شعوب الشرق القديم .

وإنى أرجو أن تجد هذه الدراسات من أبناء الشعوب العربية ما تستحقه من اهتمام لأن تحليل عادات شعوب الشرق ومعتقداتهم وتقاليدهم لا تقل فى أهميتها عن دراسة الآثار بل إنى أؤمن إيماناً تاماً بأن الدراستين مكملتان لبعضهما إذا أردنا الإلمام بحياة القدماء فى أى شعب من الشعوب ذات المدنية العريقة فى القدم .

أما عن الدراسات الأثرية فى بلاد الجزيرة العربية فإنها بدأت منذ سنوات قليلة تجد بعض العناية اللازمة ، فإن الاهتمام بالتاريخ القديم للجزيرة العربية كان متركزاً قبل كل شىء فى حل رموز النقوش المختلفة ولم تلق دراسة الآثار إلا عناية قليلة وذلك لأن الظروف لم تكن مواتية للعلماء لزيارة آثار اليمن بنوع خاص ونحن نعرف منذ وقت طويل نتائج أبحاث علماء ممتازين من أمثال هاليڤى وجلازر وميلر ورودوكاناكيس وريكمانز ولكن منذ ظهور كتاب نيلسن فى عام ١٩٢٧ بدأت دراسات تاريخ الجزيرة العربية وآثارها تدخل فى عهد جديد ولم يلبث أن ظهر بعد ذلك نتائج أبحاث كيتن تومسون فى حضرموت

---

(١) HUGH SCOTT, *In the High Yemen*, London 1942, p. 201.

بعد أبحاث راتينس وويسمان فى اليمن ولكن الحرب العالمية الثانية وضعت حداً لذلك[١] .

وفى عام ١٩٤٥ انتهز الأستاذ محمد توفيق أخصائى الحشرات بكلية العلوم بجامعة القاهرة فرصة وجوده فى بلاد الجوف فى اليمن فنقل كثيراً من نقوش تلك المنطقة وأخذ صورها الفوتوغرافية وأضاف إلى معلوماتنا كثيراً عما نقله هاليڤى وجلازر قبل ذلك من نقوش تلك المعابد[٢] ، وفى عام ١٩٤٧ قمت برحلة أثرية إلى بلاد اليمن استطعت خلالها من زيارة أهم مناطقها الأثرية وكان بين النقوش التى تمكنت من نقلها أثناء هذه الرحلة مائة وعشرون نقشاً جديداً أضافت إلى تاريخ جنوبى الجزيرة الكثير من الحقائق .

وفى عام ١٩٤٩ ذهبت بعثة أمريكية إلى وادى بيحان فى حضرموت ثم استطاعت أن تحصل من حكومة اليمن فى عام ١٩٥٠ على تصريح بالبحث بين أنقاض معابد مأرب ولكن لم تكد هذه البعثة تبدأ أعمالها فى ديسمبر ١٩٥١ حتى حدث بين رجالها وبين رجال الحكومة اليمنية نزاع أدى لسوء الحظ إلى فرار أعضائها من مأرب إلى بيحان بعد أن ظهرت بوادر النجاح فى عملها فى معبد محرم بلقيس وظهرت نقوش جديدة وبعض التماثيل . وقد تمكن الزميل الدكتور خليل نامى من زيارة منطقة الحفائر فى مارس ١٩٥٢ بعد فرار أعضاء البعثة واستطاع أخذ صور فوتوغرافية لهذه النقوش أو للأهم منها على الأقل .

وفى الوقت الذى كانت تعمل فيه البعثة الأمريكية فى اليمن أى بين نوفمبر ١٩٥١ وفبراير ١٩٥٢ كانت هناك بعثة أخرى تعمل فى هدوء وثقة فى شمال الجزيرة وكانت هذه البعثة مكونة من الأستاذ « ج. ريكمانز » عميد علماء

---

(١) يجد القارئ تلخيصاً لأبحاث العلماء فى بلاد اليمن فى كتابى *An Archaeological Journey to Yemen*, 3 *Vols. Cairo* 1952 كما يجد فيه وصفاً لآثار بلاد صرواح ومأرب والجوف .

(٢) بدأ الأستاذ محمد توفيق فى نشر نتائج رحلته فى منشورات المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة وظهرت أولى هذه الدراسات فى عام ١٩٥١ : « آثار معين فى جوف اليمن » ثم تلاها الجزء الثانى ويحتوى على ترجمة تلك النقوش للدكتور خليل يحيى نامى تحت عنوان : نقوش خربة معين فى عام ١٩٥٢ .

لغات بلاد العرب الجنوبية و « هنرى سانت جون فلبى » المستشرق المعروف ومعهما الدكتور چاك ريكمانز نجل شقيق ريكمانز الكبير ورابع لأجل التصوير الفوتوغرافى . واخترقت هذه البعثة شبه الجزيرة من الغرب إلى الشرق وتجولت فى الكثير من وديانها ومرت بنجران على حدود اليمن الشمالية وعثرت أثناء أبحاثها أكثر من ١٢,٠٠٠ (اثنى عشر ألفاً) نقشاً أكثرها نقوش قصيرة على وجهات الصخور وأغلبها ثمودية ولكن يوجد من بينها نقوش سبأية عديدة أيضاً .

ولكن جميع هذه الأبحاث سواء أكانت فى حضرموت أو فى اليمن أو فى الحجاز ونجد لم تملأ الفجوة الكبيرة فى تاريخ تلك البلاد بين العصر الپاليوليتى والعصر الذى بدأ فيه اسم بلاد العرب يظهر فى الكتابات الأشورية أو عثرنا فى بلاد اليمن نفسها على آثار مؤرخة فيه ، إذ أن أقدم الآثار أو النقوش المؤرخة لا ترجع إلى أكثر من القرن التاسع قبل الميلاد . وأقدم الآثار التى عثر عليها فى بلاد اليمن حتى الآن هو جعران باسم الملك امنحتب الثالث الذى عاش بين ١٤١٣ – ١٣٧٧ قبل الميلاد وهو جعران عثر عليه فى مأرب واشتريته فى صنعاء عام ١٩٤٧ ولكن مثل هذا الأثر الصغير لا يمكن أن يعتبر دليلا على شىء سوى وجود الصلة التجارية وهى صلة لا شك فى قيامها فى ذلك العهد والعهود التى سبقته .

أما عن الآثار القائمة فى بلاد العرب وخاصة فى حضرموت واليمن وبينها بقايا عشرات المعابد والقصور والخزانات تنتظر الباحثين وبعض هذه المعابد يتجلى فيها ذوق فنى رفيع وتقدم معمارى وليس لدينا من النقوش التى على جدران أقدم المعابد أو على جدار سد مأرب ما يرجع تاريخه إلى أبعد من القرن الثامن قبل الميلاد ولكن هذه المعابد مقامة دون شك فى المدن على أنقاض آثار أقدم منها عهداً وفى اليوم الذى يتم فيه حفر منطقة من المناطق الهامة مثل صرواح أو مأرب أو معين سيقف العالم على الكثير من حضارة تلك البلاد وصلتها بغيرها من الحضارات الأخرى .

وقد ظهر أخيراً بعض الأبحاث عن الحياة فى جنوبى الجزيرة العربية كثير منها للأستاذ ج . ريكمانز وخاصة عن الديانة كما ظهر بحث عن جميع الآلهة المذكورة فى النقوش للأب چام وأحدث الأبحاث الهامة كتاب

Jacques Ryckmans, L'institution monarchiques en Arabie Méridionale avant l'Islam (Louvain, 1951)

ويستطيع الباحث أن يجد فيه خلاصة أحدث ما ظهر عن تنظيمات الملوك وما قاموا به من أعمال كما نطالع فيه فصلا قيماً عن التاريخ chronology فى تلك البلاد وتحديد الأزمنة التى حكم فيها ملوكها المعروفون .

وإنى أختم هذا البحث بترديد ما كتبته فى عام ١٩٤٨[١] وهو اعتقادى بأنه لن يمكننا فهم الصورة الكاملة لتاريخ أمم الشرق القديم وتحديد صلة ثقافاتها ببعضها حتى يتم حفر المناطق الأثرية فى جنوبى الجزيرة العربية ، ففى اليمن وفى حضرموت وغيرهما أكوام عالية متفرقة فى مناطقها المختلفة احتفظت لنا منذ عهد طويل بما فيها من ودائع غالية ستقص علينا فى يوم من الأيام قصة سكانها القدماء ونصيبهم فى تقدم الحضارة فى بلاد الشرق القديم .

دكتور أحمد فخرى

---

(١) *Les Antiquités du Yemen, Un Voyage à Sirwah, Marib et E -Gôf* فى مجلة *Muséon,* T. LXI (1948), p. 226.